من الأرشيف الصهيوني[1]

مقتطفات من مقالة
«الحقيقة من أرض إسرائيل» لأحـاد هـعـام

تقديم

بقلم: هنيده غانم

أحاد هعام هو الاسم الأدبي للكاتب اليهودي الصهيوني آشر غنزبرغ الذي ولد في أوكرانيا العام ١٨٥٦ وتوفي في تل أبيب العام ١٩٢٧، حيث كان هاجر إلى فلسطين في العام ١٩٢١.

يعد أحاد هعام واحدا من أهم الأدباء اليهود الذين أحدثوا ثورة في عالم الكتابة العبرية، وشكلت كتاباته نموذجا جديدا لعبرية سلسة ومتلائمة مع روح الحداثة، بعيدة عن الإنشائية المنمقة والرنانة، تلك التي هيمنت على طرق الكتابة في القرن التاسع عشر. شكلت كتابات أحاد هعام ركنا أساسيا في بناء ما يسمى «الصهيونية الروحانية» وهي تيار في الحركة الصهيونية كان يدعو الى ضرورة تحضير النفوس اليهودية قبل تنفيذ أية خطوة سياسية أو عملية، وطالب بإقامة مركز روحاني قومي في فلسطين يساهم في إلهام الجاليات اليهودية في الشتات بأهمية العيش في «أرض إسرائيل على الرغم من الصعوبات الحياتية».[2] وفي هذا السياق لا بد من الإشارة الى النقد الذي وجهه أحاد هعام إلى هرتسل بعد نشر كتابه «أرض قديمة جديدة» (ألتنويلاند) إذ اعتبره «يفتقد الروح اليهودية»، وفي هذا السياق يشير الباحث الاسرائيلي يوسي غولدشتاين (٢٠١٣) إلى أن النقد لا يقتصر على افتقاد أحاد هعام للمركبات العبرية والروحانية اليهودية التي يريدها، بل يتعدى ذلك إلى «تصريحات تشي بتمركز على الذات وكره للغرباء»،[3] وهو ما يناقض «الصورة» الوردية التي حاول مريدوه رسمها له كرائد للفكر الصهيوني التنويري والعالمي.

وتعود علاقة أحاد هعام مع الصهيونية الى فترة صباه المبكرة، حيث انضم العام ١٨٨٤ إلى منظمة «محبي صهيون» التي نشأت

ونشطت في أواخر القرن التاسع عشر في روسيا، وهدفت إلى تشجيع هجرة اليهود الى فلسطين. وقد شرع أحاد هعام بعد انضمامه إلى محبي صهيون في كتابة المقالات التي نُشرت في جريدة (هملیتس) وكان أبرزها مقاله (ليس هذا الطريق) الذي أثار جدلاً كبيراً لأنه ادعى فيه أن «أرض إسرائيل لا تهدف الى حل المسألة الوجودية أو الاقتصادية لليهود»، وأنه لا يكفي أن تكون «أرض إسرائيل بيتا قوميا لليهود لتكسب شرعيتها» بل عليها أن تشكل بيتا «روحانيا» و«نورا للأغيار» ومنارة عالمية كي تكون لها بالفعل شرعية للوجود.

قام أحاد هعام في العام ١٨٩١– بطلب من «منظمة محبي صهيون»– بزيارة استكشافية لفلسطين من أجل كتابة تقرير عن البلاد وعن الوضع الاستيطاني فيها، وهو ما أسفر عن كتابة «الحقيقة من أرض إسرائيل»[٤] التي نورد أجزاء كبيرة منها هنا.

تكمن أهمية هذه الرسالة في كونها من الكتابات الأولى التي فندت الادعاء الصهيوني عن فلسطين كأرض مقفرة جرداء، وتحدثت عن الوجود العربي في البلاد وعن العلاقة الاستعلائية للمستعمرين تجاه الفلسطينيين. وقال فيها إن «ما يفعله إخواننا في أرض إسرائيل العكس تماماً! لقد كانوا عبيداً في مهجرهم، وفجأة وجدوا أنفسهم يتمتعون بحرية غير محدودة، حرية تامة يستطيعون الحصول عليها فقط في دولة كتركيا. إن هذا التغير المفاجئ يولد في نفوسهم نزعات يطلق عليها دائماً «العبد ينصب نفسه ملكاً»، وها هم يعاملون العرب بعداء ووحشية ويقتحمون حدودهم بدون عدل، يضربونهم بشدة بدون سبب كاف ويتباهون بعملهم هذا، ولا يوجد من يواجه ذلك ويمنعهم من هذه الميول المهينة والخطيرة». وقد نقض عمليا أحاد هعام بقوله هذا أهم فرضيات الصهيونية الأساسية التي روجت بأن البلاد جرداء والسكان شراذم من المتوحشين. وشكلت لاحقا رافدا مهما لليسار الصهيوني الذي يحاول أن يضفي على فكره الصهيوني بعدا إنسانيا، وأن يصر على عدم وجود تناقض بين الأخلاق وبين الصهيونية.

لكن، هل يكفي موقف أحاد هعام الناقد للمقولات الصهيونية التي هيمنت حينها، للحديث عنه كمفكر «روحاني إنساني» طالما كان أساسا مفكرا صهيونيا يؤمن بالهجرة إلى أرض فلسطين لإقامة «كيان قومي» يهودي أيا كانت صبغته؟ هل يمكن أصلا أن تكون الصهيونية «روحانية» و«إنسانية»، وأن تدمج بين قيم العدالة والمحبة والاستعمار كما حاول الترويج لها البعض، خاصة في بدايات القرن العشرين؟ وهل يكفي أن يتم التنصل من بعض الممارسات المسيئة من قبل المستعمرين الأوائل، وأن يتم رفض المقولات «السطحية والعنصرية» عن أرض مقفرة حتى يتم الحديث عن صهيونية «روحانية» مقابل «صهيونية قوة»؟ قد يكون هذا ممكنا وحيويا في إطار النقاش الصهيوني الداخلي، خاصة في الفترة التي كان يتم فيها صياغة التوجهات العامة للصهيونية والسعي نحو بناء أسسها الفكرية والقيمية، لكن هذا لا يحمل ولا يشكل أي فارق ذي معنى بالنسبة لأصحاب البلاد الأصليين، إذ أيا كانت نتيجة هذا النقاش ما كانوا ليقبلوا بوجود حركة استيطانية ذات أطماع قومية في بلادهم. فالفعل الاستيطاني الصهيوني بمجرد تعريفه كمشروع قومي يسعى للتحقق في بلاد مسكونة، لا يمكن أن يكون قابلا للإعراب إلا من خلال مفاهيم القوة والسيطرة على المكان وإقصاء السكان الأصلانيين والتمدد في الحيز وتغيير معالمه وإحلال المشاهد التي يريدها على المكان، وهو ما وجد ترجمته العملية في تطهير البلاد من سكانها العام ١٩٤٨، وفي تشتيتهم ورفض عودتهم، ناهيك عن استمرار السعي نحو تذريرهم سياسيا ومحاصرتهم وقمعهم.

«الحقيقة من أرض إسرائيل»/ أحاد هعام

بعد سنوات طوال مرت علي في العقل والخيال بشأن أرض آبائنا وانبعاث شعبنا فيها، قيض لي الآن أخيرا أن أرى بأم عيني محط أحلامي، أرض المعجزات التي تجتذب قلوب الناس من كل الشعوب والبلدان. لقد مكثت فيها قرابة ثلاثة أشهر.. شاهدت أطلالها– بقية حياتها السابقة– وتأملت وضعها البائس في الوقت الحاضر، غير أنني انتبهت بشكل خاص إلى المستقبل، وأينما ذهبت كان ثمة سؤال واحد ينتصب أمام عينيّ دائما وأبداً: ما هو الأمل الذي نصبو إليه هنا في المآل الأخير؟ هل ما زال هذا البلد مهيئا لبعث الحياة فيه مجددا، وهل أبناء (شعب) إسرائيل مؤهلون وقادرون على إعادة إحيائه؟

لم يكن عسيرا علي العثور على إجابة على السؤال بشأن هذه البلاد، إذ يكفي التجوال فيها بضعة أيام، ورؤية جبالها ووهادها، حقولها وكرومها وبساتينها التي تطرح في الحقيقة ثمارها ومحاصيلها على الرغم من كسل العرب وخمولهم، فهي لم تفقد بعد حيويتها ونضارتها، بل ما زالت قادرة على العطاء كما كانت، قادرة على منح الحياة والسعادة لعشرات الآلاف من أبنائها حين يعودون إليها بصدق وإخلاص، ليحرثوها ويزرعوها مشمرين عن سواعدهم. لكن في المقابل، لم يكن سهلا علي العثور على إجابة عن السؤال الثاني المتعلق بشعب إسرائيل، وباختصار جلب القوى الحية والفاعلة، والتعرف من خلال أفعالها على مدى قدرتها على الوصول بنا إلى الهدف المنشود.

حين غادرت البلاد يحدوني الأمل والطموح، غادرتها بغصة في القلب– مكتئبا– منقبض الصدر، فخيالي لم يحلق بعد عاليا كما في السابق، ولم يراودني ذاك الحلم الجميل بهذه الديار وقاطنيها وكل ما يجري فيها، وإنما أخذت بحقيقة ملموسة متجسدة، مقيدة بصورة مدركة ومركبة من أحلام وخواطر معروفة، جيدة وسيئة، لا يمكنني التغاضي عنها.

من هذه الحقيقة أريد أن أكشف هنا القليل، وهو بشع كثيراً؛ أنا لا أريد هنا أن أكون «عازف كمان أناشيد صهيون»، أو أن أؤجج خيال القراء ومشاعرهم من خلال عرض رسومات وصور لطيفة– مثل هذه الكمانات لدينا منها ما يكفي ويزيد، والتي تنومنا بأنغامها الجميلة– على العكس فإن كل ما أنشده هو إيقاظ إخوتي في محبة صهيون من سباتهم اللذيذ، لأعرض أمامهم، كشاهد عيان، الجانب السيء في مسيرة «الحركة»، حتى يتمكنوا من الحكم بدورهم أيضا، إذا ما كانت أفعالنا تلائم غاية ما نصبو إليه، وإذا لم يكن هناك ما يدعونا إلى القلق إزاء المستقبل، على الرغم من الأحلام والتطلعات الرائعة التي التقت هنا وهناك: فخطأ واحد مفقود أفضل بكثير من أخطاء كثيرة وأساسية...

*****

«إلى أرض إسرائيل أو إلى أميركا؟!».. هذا السؤال، الذي أفرز في حينه أدبيات جدل ونقاش غزيرة، لم يعد يثار تقريبا في السنوات الأخيرة، ذلك لأن العقلاء وأصحاب النوايا الحسنة في كلا الجناحين اضطروا بمرور الأيام إلى الإقرار بشكل متبادل، حيث أقر المنادون بأرض إسرائيل أمام معارضيهم، بأنه لا يمكن لأرض إسرائيل أن تستوعب الآن كل أبناء شعبنا المشردين من وطنهم، وخاصة التجار والحرفيين، الذين يسعون وراء مصدر رزق للعيش، ولن يلبثوا أن يفقدوا القدرة على مزاولة العمل الشاق الذي تتطلبه فلاحة الأرض، وانتظار ثمار عملهم. كذلك اضطرت الفئة الأخرى إلى الاعتراف بدورها أن أميركا لا تستطيع أن تستوعب داخلها في مكان واحد جموعا كبيرة من أبناء إسرائيل، ومساعدتهم في تثبيت أقدامهم على الأرض كي يؤسسوا هناك مركزا عبريا.

من هنا فإن الجواب الحقيقي هو إذن: إلى أميركا وإلى أرض إسرائيل. الجانب المادي و(الاقتصادي) في المسألة اليهودية يجب ان يجد إجابته في أميركا، في حين ان الجانب المثالي (المعنوي) المتمثل بضرورة أن نخلق لأنفسنا مركزا دائما عن طريق توطين جمهور كبير من اخوتنا في مكان واحد على أساس استصلاح وفلاحة الأرض، حتى يعرف شعب إسرائيل وأعداؤه بأن هناك مكانا تحت الشمس، حتى ولو كان أضيق من أن يتسع لكل الشعب، الذي سيرفع هناك رأسه اليهودي أيضا كسائر الناس، وأنه بلده وعرقه، سيقيم أوده من أرض هذا البلد وسيخلق ويوفر بروحه القومية شروط معيشته معتمدا على نفسه.. هذه الضرورة، إذا ما كان ثمة أمل بتحققها، لا يمكن أن تتحقق سوى في أرض إسرائيل.

إذا كان الأمر كذلك، إذا كان إعمار أو استيطان أرض إسرائيل لا يشكل إجابة على سؤال «كيف سنطعم» كل فرد، وإنما على مسألة حياة مجموع أفراد الشعب، أوليس من العدل والمنطق أن يذهب إلى أميركا كل من يشاء ويرغب، بإرادته وعلى مسؤوليته فقط، بينما تكون مهمة إعمار أرض إسرائيل واستيطانها ملقاة على عاتق مجموع الشعب، وأن تكون كل خطوة محسوبة ومدروسة بعناية وتؤدة، بإشراف قادة الشعب وزعمائه، حتى تكون كل الأفعال موجهة نحو هدف واحد، دون أن يأتي أفراد ويتسببوا بأعمالهم الطائشة بقلب الأمور رأسا على عقب. ولكن حتى نفهم أكثر الحاجة المطلقة إلى عمل موحد ومنظم، ما زال يتعين علينا أن نتأمل وضع البلاد الآن مقارنة مع هدفنا والعقبات التي تعترض طريقنا.

لقد اعتدنا نحن الذين نقيم في الخارج على الاعتقاد بان أرض إسرائيل هي الآن بأكملها بلد خاو مقفر، صحراء جرداء، وان في وسع كل من يريد شراء أراض فيها أن يأتي ويشتري كما يشاء. لكن الأمر في الحقيقة ليس كذلك. فمن الصعب ان تجد في كل هذا البلد حقولا زراعية غير صالحة للزراعة؛ هناك فقط سهول رملية أو منحدرات جبلية لا تصلح إلا لغرس الأشجار الحرجية، وهو ما يتطلب عملا كثيرا وإنفاقا كبيرا من أجل استصلاحها وتأهيلها لذلك، هذه المناطق فقط غير مستصلحة للزراعة، وهذا لأن العرب لا يحبون التعب كثيرا في الحاضر من أجل مستقبل بعيد. من هنا لا يمكن العثور في كل يوم على أرض جيدة للشراء. ليس الفلاحون فقط، وإنما أيضا ملاك الأراضي الكبار، لا يبيعون بسهولة أرضا جيدة ليست فيها أية شائبة.

كثيرون من إخوتنا الذين جاؤوا ليشتروا أراضيَ، مكثوا في البلد عدة أشهر وجابوها طولا وعرضا لكنهم لم يعثروا بعد على مبتغاهم.

لقد اعتدنا، نحن المقيمين في الخارج، على الاعتقاد بأن العرب كلهم أناس بدائيون متخلفون، شعب يشبه الحمير، لا يرون ولا يدركون ما يجري من حولهم. لكن ذلك خطأ فادح. فالعربي، مثل كل أبناء سام، يمتلك ذهنية حادة ويتحلى بالفطنة والذكاء. جميع مدن سورية وأرض إسرائيل مليئة بالتجار العرب، الذين يعرفون أيضا استغلال الجمهور تماما مثل أوروبا. هؤلاء العرب، وخاصة سكان المدن، يرون ويدركون أفعالنا، وهم على دراية بمبتغانا في هذا البلد، لكنهم يتظاهرون بأنهم لا يعرفون، لأنهم

لا يرون في أفعالنا الآن أي خطر على مستقبلهم، ولذلك تجدهم يسعون إلى استغلالنا نحن أيضا، وإلى جني فائدة من الضيوف الجدد حيثما استطاعوا، ومع ذلك يسخرون منا في دواخلهم.. الفلاحون مسرورون إزاء قيام مستعمرة عبرية في وسطهم، لأنهم يحصلون على أجر جيد لقاء عملهم ويزدادون ثراء من سنة إلى أخرى، كما أظهرت التجربة؛ كذلك فإن ملاك الأراضي الكبار فرحون مسرورون بقدومنا أيضا، لأننا ندفع لهم لقاء أرض حجرية ورملية ثمنا مجزيا، لم يروه حتى في أحلامهم.

ولكن إذا أتى وقت شهدت فيه حياة أبناء شعبنا في أرض إسرائيل نموا وتطورا كبيرين، بما يؤدي بشكل أو بآخر إلى طرد وإقصاء شعب البلاد الأصلي، فإن هذا الشعب لن يتزحزح عندئذ بسهولة من مكانه..

لقد اعتدنا نحن المقيمين في الخارج، الاعتقاد بأن الحكومة التركية ضعيفة وغير مبالية إلى حد عدم الانتباه نهائيا من جانبها لكل ما يجري في أرض إسرائيل، وأنه سيكون في مقدورنا لقاء حفنة من المال أن نفعل هناك ما نشاء، لا سيما إذا ما شكل أقطاب ممالك أوروبا غطاء لنا. ولكننا نخطئ جداً في هذا أيضا. صحيح أن «البخشيش» يمثل قوة كبيرة في تركيا، لن يتمكن حتى زعماء الدولة من الصمود أمامه. لكن علينا أن نعرف مع ذلك بأن كبار الوزراء هم أيضا وطنيون ومتعصبون جدا لدينهم وحكومتهم، وفي المسائل ذات العلاقة بكرامة أي منهما (الدين والحكومة) تجدهم يؤدون واجبهم بإخلاص وقناعة، ولن تنفع هنا أية أموال، كذلك فإن تدخل القناصل في مثل هذه الأمور من شأنه أن يجلب أحيانا مضرة بدلا من منفعة، وفقا لما عرفته من مصادر موثوقة.

إضافة إلى كل ذلك، علينا أن نتذكر بأن آثار الحضارة الجديدة ظهرت أيضا هنا وهناك في أنحاء هذه البلاد. فسكة الحديد بين يافا والقدس سوف يستكمل بناؤها قريبا، وهناك حديث أيضا عن أن الحكومة أصدرت الترخيص اللازم لبناء سكة حديد أخرى، أكثر تطورا، من حيفا إلى دمشق. ومما لا شك فيه أن صوت هدير القطار سيحدث تغييرات كبرى في وضع البلد وسكانه، وبالتالي سيزداد العمل صعوبة ومشقة.. وإذا ما أضفنا كل ذلك للعقبات والمصاعب العامة، الطبيعية والأخلاقية، والتي سيصادفها بالضرورة أي جمهور كبير قادم للاستيطان والاستقرار في بلد جديد ما، لا سيما إذا كان يريد أن يغير هناك أيضا كل أنماط حياته، وان يتحول من تاجر إلى مزارع يفلح الأرض، فإننا، وإذا ما كنا حقا نرغب بتحقيق هدفنا في أرض آبائنا، لن نتمكن بعد الآن من التغاضي عن أننا قادمون لخوض حرب قاسية وأن هذه الحرب تتطلب تحضيرات واستعدادات كبيرة: مطلوب معرفة واضحة وتفصيلية عن وضع ساحة المعركة ومميزاتها، مطلوب نهج كامل وثابت يحدد سلفا كل النشاطات والجهود المستقبلية، مطلوب أسلحة جيدة، ليس سيفا ورمحا، بل إرادة جبارة ووحدة تامة، وفضلا عن كل ذلك ثمة حاجة لزعماء ملمين ومؤهلين لذلك، يسيرون في مقدمة الصفوف، ويوحدون وينظمون كل الأعمال والنشاطات بما يتوافق ويتماشى مع متطلبات الهدف، وان لا يخرج أحد على طاعتهم. فقط في ظل مثل هذه الظروف نستطيع ان نأمل بأننا، على الرغم من كل العقبات، إذا ما أردنا ان نعمل فسوف نعمل، وأننا قادرون أيضا، فلا شيء يمكن ان يقف أمام إرادة ووحدة شعب كامل.

إن المبدأ الرئيس الذي يتوقف عليه كل شيء هو إذن ليس كمية أعمالنا وإنما نوعيتها، وانطلاقا من ذلك علينا ان ننظر لوضعنا الآن في البلد، إذا ما كنا لا نرغب في خداع أنفسنا وخداع الشعب الذي يثق بنا.

يسرنا نحن المقيمين في الخارج ان نرى بأن الميل نحو الاستيطان في أرض إسرائيل آخذ في الازدياد في صفوف شعبنا. لكن هذا السرور يمكن ان يكون مبررا فقط في حال توفر شرطين: أولا إذا كان الشعب يدرك حقيقة الوضع كما هو في الواقع، وإذا كان كل الراغبين في الهجرة إلى البلاد يعرفون مسبقا العقبات التي سيواجهونها في طريقهم، والعمل الشاق الذي سيتعين عليهم القيام به إلى أن يجدوا في البلاد – ليس المال والثراء وإنما الخبز الذي يقيتهم، وان يكونوا راغبين على الالرغم من كل ذلك في الهجرة، وان نكون واثقين عندئذ بأنهم عازمون حقا على تجشم عبء العمل، بحيث يكون في مقدورنا ان نأمل في أن غالبيتهم سيكونون مؤهلين للقيام بالمهمة التي أخذوها على عاتقهم. ثانيا، ومن جهة أخرى، إذا ما كان كل شيء جاهزا ومعدا لمثل هذه الحركة، وإذا ما كانت تتوفر لدينا كل المعلومات الضرورية لمشروع كبير من هذا النوع، وإذا ما كان يتوفر لدينا الرجال القادرون على الوقوف في طليعة الحركة، وعلى جمع وتوحيد كل العناصر والأفراد في وحدة واحدة، وأن يسيروا في مقدمة الصفوف ليرشدوا الشعب إلى الطريق الصحيح، وليحفظوه ويحموه من كل من يريد به السوء..

ولكن المكوث في أرض إسرائيل لفترة قصيرة فقط، وتأمل كل ما يحدث بإمعان، يكفي لمعرفة وإدراك أن هذين الشرطين غير متوفرين لنا البتة.

*****

في كل الأمم والشعوب نجد أن الأدباء والخطباء الذين يحضرون

من أجل حركة جديدة ما هم رجال مثل ومبادئ، يعرفون زمان ومكان كل شيء ويحسنون الكلام ويكرسون الوقت والجهد من أجل قيادة الشعب بأفضل أسلوب، ولو كانت «الحركة» لدينا حقاً حركة نزيهة وعامة، لكان لديها بالتأكيد أدباء ودعاة كهؤلاء، يحسنون التفكير ويتوخون الحذر في أقوالهم. لكن الآن حيث ليس لدينا حقا سوى أناس واهمين مترهلين يعمل كل منهم على هواه، فإن هؤلاء يتحدثون ويعملون كما يحلو لهم بدون التفكير مليا بنتائج أقوالهم، وهم يعتقدون أنهم بحماسهم واندفاعهم الزائد سيجلبون المنفعة من استيطان البلاد حتى من خلال ابتداع مشاعر جياشة. إنهم يشعرون بأن الجمهور الواسع بعيد جداً عن محبة صهيون وأن الحقيقة وحدها غير كافية لاجتذابه ولهذا يسمحون لأنفسهم بالكذب «لابتغاء مرضاة الله» وبالتهليل وبكيل المدائح للأراضي وثمارها بمبالغة مفرطة، ويروجون على الملأ رسائل مشجعة بذلك بـ «تواقيع» شبان أو هاذين أو أيضاً الويل لي إذا قلت محتالين يبالغون بإفراط في عرض آرائهم وحساباتهم، وكأنه لا يكفي أن تكون أرض آبائنا مثل البلدان الأخرى تشبع عمالها خبزاً، وإيماناً، بل يجب أن تنتج السميد والصوف الناعم بدون معاناة مفرطة. لقد نجحوا فعلا ومن خلال هذه الأساليب بإثارة المحبة في قلوب كثيرين، لكن ما عدا محبة صهيون وإسرائيل، ولا حتى محبة العمل الجسدي وحياة الفلاحين، بل محبة «المهنة الجديدة»؛ أي محبة بإنتاج العنب وبالمحصول الذي يجنيه أصحابها، وكما يقولون الأجر الجيد المضاعف والوفير. وقد وجدت حشود كثيرة من المجرمين السابقين والسماسرة وما شابه ارتكازاً على هذه البشائر بأن «الفكرة العظيمة» أفضل من جميع أعمالهم، إذ توفر عطاءً كبيراً ومتطلباتها قليلة، وهكذا أصبحت أرض مقدساتنا كاليفورنيا الجديدة، تجذب إليها عيون المستطلعين إلى «الدخل» السهل والباحثين عن «الكنون» على اختلاف أنواعهم وأصنافهم.

استبعدت من هذه التصورات جميع الحسابات الدقيقة، التي بناء عليها كانت تؤسس يوميا جمعيات مختلفة لزراعة الكرامة. من بين الذين يطلق عليهم «أحباء صهيون» لا يعرف الآن شفوياً حساب الكروم والغنى الوفير لأصحابها؟ من لم يعرف بأن الكروم تكلف أصحابها هذا المبلغ أو ذاك، وأن كل نبتة كرمة تنتج هذا المقدار أو ذاك من العنب، وأن النبيذ يصنع من العنب، وأن النبيذ الجيد والأطيب من كافة أصناف النبيذ الأخرى، يباع في جميع أرجاء العالم بسعر أعلى، وأنه بعد كل هذا سيكون المجموع هو (عدد معقول) من المئات؟ إن الأشخاص الذين لم يشاهدوا في حياتهم شكل الكرمة، يجلسون ويلقون المواعظ وكأنهم خبراء بأعمال الكرمة والنبيذ، ويجرون حسابات مفصلة ومضمونة «للمداخيل الكبيرة»، وجميع الشعب يسمع ويمتدح ويصفق ويرى بذلك «بدايات الخلاص». وبالفعل يشكل هذا بدايات الخلاص لكن بمفهوم آخر....

أوقن فعلاً بأن هذه الأقوال ستثير ضدي غضب الكثيرين، لكنني أعتقد بأن واجبي المقدس يفرض علي نشر الحقيقة: لا تتوفر لنا حتى اليوم أي تجربة نستطيع الارتكاز عليها والمقارنة بناء عليها ما الذي نأمل الحصول عليه من الكروم الجديدة في أرض إسرائيل. تسير جميع الكولونيات القديمة منها والجديدة بصورة عمياء وراء المزارعين لدى الأغنياء. وقد بدأوا في ريشون لتسيون بزراعة كرمة «بردلو»، وزرع جميع الشعب «بردلو»، وإذا عادوا في ريشون لإعطاء الأفضلية لكرمة «ملبك» عاد جميع الشعب للبحث عن «ملبك» تحت أنوار الشموع، بدون الانتباه إلى أن جميع الأنواع الفرنسية هذه لا تعدو كونها حقول تجارب جديدة في الأرض المقدسة لا أحد يعرف نتائجها، وأنه على الرغم من جميع دعوات المختصين الفرنسيين، وعلى الرغم من الأكاذيب التي تنشرها المجلات فإن محصول النبيذ في ريشون لتسيون لم يكن العام الماضي جيداً، وليس بالإمكان عرضه في أسواق أوروبا، وبالفعل بالإمكان، بناءً على آراء المطلعين، نسب ذلك لأسباب صدفية مختلفة، الأمر الذي لا يدعونا للإحساس باليأس، لكن على جميع الأحوال فإنه لا يوجد أمامنا سوى الأمل بأن تسير الأمور جيداً، وسيبقى هذا الأمل معلقاً؛ إذ من المحتمل أن لا يحقق النبيذ الجديد أسعاراً عالية في الأسواق البعيدة، وذلك جراء مصاريف الشحن والضرائب، وأن يباع فقط بدرجة محدودة في داخل البلاد وعلى الشواطئ المجاورة. وإذا ما زرع إخواننا عشرات آلاف أشتال الكرمة في وقت قصير فأين سيخزن هذا النبيذ وكم سيصبح سعره؟ إذا وجد الأغنياء، الذين يعيشون في الخارج ويستثمرون مبلغاً زهيداً من أموالهم في كروم العنب في أرض إسرائيل، في حساباتهم ربحاً أقل من خمسين بالمئة، فهذا ليس سيئاً، لكن هؤلاء من ذوي الدخل المتوسط أو الفقراء الذين يستثمرون جميع أموالهم في حقل كرمة صغير وينتظرون بفارغ الصبر اليوم السعيد، بعد أن كان كل واحد قد جلس تحت كرمته وتخيل سماع رنين الأموال الكثيرة التي سيحصل عليها ثمناً لنبيذه- إذا ما أخطأ هؤلاء في الحسابات ولم يكن دخل الكرمة كافياً لسداد قوت يومهم، فما الذي سيحل حينذاك بهم وبالبلاد؟

هذه النظرة السائدة هنا لحقول الكرمة، والأخطاء المحدقة بأرض إسرائيل إذا ارتكزت على هذا الأساس، ليست مقتصرة علي فقط، بل يتبناها أيضا جميع الواعين في أرض إسرائيل. ويضيف مرهفو المشاعر أيضاً بأنه من بين المؤشرات السيئة

للأوضاع الأخلاقية لشعبنا، رغبته في أن يجعل بلاده جميعها مشروباً، وأن يحول جميع الأرض المقدسة إلى حقل نشوة كبير... وبالإمكان الزعم أن هذه الأيديولوجية تتضمن شذرات من الحقيقة، لكن بغض النظر عن ذلك، لا ريب في أنه إذا كانت الحركة تنظم من مصدر طاهر، وارتكزت على معرفة موثوقة، فإنه لا يمكن أن تتخذ هذا الشكل. يجب على جميع هؤلاء الذين يريدون أن يغتنوا بدون عمل أن يبحثوا عن غناهم في مكان آخر، أما إلى أرض إسرائيل فيجب أن يأتي فقط الأشخاص من بني إسرائيل، الذين تعتبر البلاد وزراعتها محببة عليهم بحد ذاتها ولا يركضون وراء الغنى السريع، ليأت إليها أشخاص ملوا فعلاً وحقاً حياة المهانة والضياع ويتطلعون للتوجه إلى أرض آبائهم بعزيمة صادقة، متخلين عن المعايير المستنكرة مثل تاريخ التجارة، ويتطلعون إلى الإدمان برغبة جامحة على العمل الجسدي، والراحة الروحية، أشخاص كهؤلاء لم يكونوا ليخاطروا بأنفسهم لدى تأسيس مستقبلهم ومستقبل البلاد من خلال الارتكاز على تقديرات لم تتضح بدرجة كافية، بل سيختارون شراء حقول زراعية وإنتاج خبزهم بعرق جبينهم، إضافة لذلك يستطيعون أيضاً زراعة الكروم في أوقات الفراغ، وبالتدريج وليس بواسطة آخرين وبدون مصاريف كثيرة، وإذا أدى النبيذ مع مرور الأيام إلى دخل كبير، فهذا جيد، وإذا لم يؤد إلى ذلك يكتفون بالقليل ويتناولون خبزهم بسعادة. لا يطبق هذا اليوم، إذ إن معظم الذين يحضرون إلى البلاد لا يحضرون إلا على أساس نفس هذه الحسابات التي تعدهم بدخل كبير مقابل عمل قليل (أو فقط مقابل الإشراف على عمل الآخرين)، وفقط بناءً على ذلك يبادرون الآن بالاستيطان في أرض آبائهم، ومن البديهي أن لا يكون لديهم الآن أي «حساب» للعمل في زراعة بسيطة للأرض، تعطيهم القليل فقط، وبناءً على ذلك، يبدو أن كل أعمال سكان البلاد هي نوع من المضاربة في البورصة، ترتكز على مبدأ الغنى أو الموت!.

*****

إن شعب إسرائيل «شعب حكيم وعقلاني» عندما يريد، وهذا أمر ليس بالإمكان إنكاره، لكن صفة أخرى التصقت به أكثر مما التصقت بباقي الشعوب تعيد حكمته للوراء، هي صفة التقليد. برزت مأثورات أبناء إسرائيل مبكراً، وتحدثت عن ضرورة كل مسألة وجدواها، وثبت كل هذا بوضوح في الصغائر والكبائر لكن عبثا! فقلة فقط من يأخذون بالنصائح أما الحشود فتبقى ساكنة في أماكنها لا يرف لها جفن، لكن إذا قام شخص ما بغض النظر عمن يكون وفعل أمراً، حتى وإن لم يكن في مساره الصحيح ومن غير أساس صحيح، فإنه يجد على الفور طلاباً كثيرين، يسيرون في دربه ويقلدون أعماله بعيون معصوبة. يمكن أن نستخلص من هذا المثال جدوى كبيرة لقضيتنا، لو كانت أعمالنا فعلاً عامة، ويقودها أشخاص كبار متفتحو الذهون، حينذاك تجري الخطوات الأولى بصورة سليمة، ويقوم الشعب بمحاكاتها ويسير بخطوات كبيرة وراءهم.

لكن وفقاً للحالة السائدة الآن، لا يوجد أسلوب ولا نظام ولا توحيد لكل أعمالنا، إذ إن كل مفكر (أحياناً كل مجنون حقيقي) يعتقد بأنه مسيح منتظر صغير، يقفز إلى المقدمة لإنقاذ إسرائيل، وحتى الآن ليس بالإمكان تقدير الأضرار الناجمة عن هذا المعيار. يكفي تشكيل شخص ما في مدينة ما جمعية ما وحتى إذا كان على أساس هش وحسابات هوجاء، ينطلق على الفور كثيرون في أعقابه وتقام جمعيات كهذه وتقريباً بدون أي تغيير في التأسيس وخلال فترة قصيرة في مدن كثيرة، بدون أي بحث ومعرفة إذا ما كانت هناك جدوى حقيقية وبدون سؤال ذوي التجربة، وبدون أي انتباه لحقيقة أن ما يمكن القيام به في مكان قد يكون سهلا في جميع الأماكن، وبدون التمييز بأن ما هو جيد لمجموعة من الأشخاص المختارين ومحبي صهيون فعلاً، المتقاربين في آرائهم ومخططاتهم، سيكون جيداً لجميع الغوغاء من العامة...

بدأوا في مستعمرة البارون في الأيام الأخيرة بإيلاء اهتمام لتربية دودة القز. ويقومون في ريشون لتسيون وزخرون يعقوب الآن بمحاولات كهذه ويوجد أمل لكن لم تنته التجارب ولم يعرف حتى المراقب (مثلما قال بنفسه لي) النتائج المفصلة بعد، ومع ذلك يوجد في أرض إسرائيل مفكرون متلهفون أجروا حسابات مفصلة لتأسيس «جمعية الألف» الجديدة لزراعة حقل أشجار توت وتربية دورة القز لإنتاج الحرير! لقد أصاب الذهول المراقب المذكور لدى مشاهدته الحسابات.

لكن على الرغم من تحذيره، لن استغرب بتاتاً إذا ما قرأت قريباً بشارة طيبة في المجلات، بأنه في إحدى المدن «ولدت» بسلامة والحمد لله جمعية كهذه وستغتني، ولن تمر أيام طويلة وستولد مثلها وفي ظلها عشر جمعيات، وسنسمع تحت داليات الكروم وقرب أقبية النبيذ شيوخا وشبانا يتحدثون طوال اليوم عن التوت والحرير...

ما سبب ذلك؟ – اعتاد رؤساء الجمعيات على القول إنه من المحظور وفقاً لأنظمتنا على أي عضو الاستيطان في البلاد إلا عندما يكون كل شيء جاهزا أمامه.

وإذا تبين أيضا حينذاك بأن حساباتنا خاطئة، لن نسمح بهجرة الفقراء. وفي نهاية المطاف ومن خلال هذه الأعمال تنقل قطعة أرض كبيرة من أيدي العرب لأيدي شعب إسرائيل.

لكن يتضمن هذا الزعم أخطاء كثيرة، أولاً – هؤلاء الفقراء الذين رهنوا أدواتهم المنزلية من أجل المشاركة في جمعية (حدث مثل ذلك) لا يستطيعون بسهولة نسيان الحلم البهيج الذي دغدغ مشاعرهم لأيام طويلة. وحتى إذا صرخ المؤسسون بعد ذلك بصوت مرتفع بأنهم أخطاؤا في حساباتهم وأنه ما كان يتوجب عليهم عرضها – فلن يجدي صراخهم نفعاً مثلما لا تجدي نفعاً الآن التحذيرات القادمة من المؤتمر في أوروبا، وستغتني أرض إسرائيل بآلاف الفقراء الجدد الذين يحصلون على دعم أو يتضورون جوعاً.. ثانياً– تثبت التطورات بأنه وعلى الرغم من النظام المذكور، سيستوطن في البلاد عدد كبير من الأعضاء الجدد قبل الوقت المحدد لذلك، لأنه وفقاً للأوضاع الاقتصادية السائدة الآن خارج البلاد، تقتطع أرزاق كثيرين يومياً وأشخاص كهؤلاء تستوجب أوضاعهم الهجرة، وعندما توجد لديهم مزرعة أو جمعية ما، فلن يطالبوا بالراحة المؤقتة في مكان آخر وذلك لحين تتوفر لهم إمكانية الاستيطان في البلاد. وللحقيقة تلقينا من أرض إسرائيل في الوقت الذي كنت فيه هناك رسائل من أعضاء جمعيات، يطالبون بالحصول على ثغرة لتجاوز الأنظمة المذكورة، ثالثاً– يوجد رأسماليون في جمعيات كهذه، ليسوا جميعاً سيأتون بالبركة للبلاد لدى عودتهم إليها، لأن مؤسسي الجمعيات كما هو معروف لا يدققون كثيراً لدى تصنيف الأعضاء بكل ما له علاقة بمضامينهم الأخلاقية وبقدرتهم على العمل الجسدي، بل يهمهم فقط دفع هؤلاء كامل الأموال المترتبة عليهم. ليس بالإمكان في مسألة كهذه حساسة ومعقدة، الإدراك بأن الاستياء سيرافق وصول هؤلاء الأشخاص غير الصالحين حتى وإن بدا للوهلة الأولى بأن بطونهم مليئة..

*****

إضافة لكل ذلك، فيما يلي الأمر الجيد الوحيد القائم في كافة هذه الأعمال – شراء الأرضي، الأمر الذي جدواه تساوي مساوئه في هذا الوقت جراء انعدام الوحدة والأنظمة. ومن لم يشاهد كيفية شراء وبيع الأراضي في أرض إسرائيل الآن، لم يشاهد منافسة مهينة، وبشعة في حياته. إن كل ما جرى بين المستطلعين وصغار السماسرة في إحدى مدن «المجال» لا يعدو كونه عدلاً واستقامة بالمقارنة مع ما يجري الآن في البلاد، لقد وجدت ولدى توجهي إلى هناك قبل ثلاثة شهور فقط شركتين مضاربتين (تشتريان أراضي بهدف بيعها كقطع)، ولمسنا حينذاك بأن الاحتكار سيشكل في المستقبل لغماً أمام السكان اليهود في إسرائيل، وهذا ما يحدث الآن! لقد تكاثر المضاربون خلال فترة قصيرة بصورة مذهلة، وعندما غادرت البلاد، كانت هناك ست شركات كهذه، وسيزداد عددها بدون أدنى شك، إضافة إلى معسكر كبير من السماسرة والعاملين الصغار في هذا المجال، ومنهم خياطون ومصلحو أحذية تركوا مهنهم لصالح هذه «التجارة»، ومن المخادعين على اختلاف أصنافهم من بين المهاجرين الجدد، والذين بعضهم، ويا لعارنا، اشتروا أرضاً لأنفسهم وسيطلق عليهم «كولونياليو المستقبل» – جميع هؤلاء يتنافسون ويتحدون بعضهم البعض ويحاول كل منهم مضايقة زميله في كل خطوة. وما هي الأساليب التي يستخدمونها! إن كل رذيلة، وكل خبث وخداع مسموح بنظرهم، يحصلون ومن خلال الرشاوى على رسائل وبرقيات الآخرين، لديهم جواسيس يتواجدون بسرية في كل مكان بهدف معرفة أعمال منافسيهم وأهواء المشترين، وفوق كل ذلك يضاربون بأسعار الأراضي بصورة رهيبة، ويزرعون الحكمة في نفوس العرب أصحاب المزارع.... لدى وصولي للبلاد تناهت لمسامعي من بعض أفاضل إخواننا هناك، بأن مرجاً ممتد الأطراف على وشك البيع يتكون من أكثر من مئة ألف دونم من الأراضي الزراعية الخصبة، لكن مالكه حدد سعره بعشرين فرنكاً للدونم «من المحظور الشراء بهذا السعر الرهيب، لأن باقي البائعين سيعرفون، وسيؤدي ذلك إلى إلحاق أضرار كبيرة في المستقبل»، لم تمر سوى ثلاثة شهور واشترى أحد المضاربين المرج المذكور بالسعر «الرهيب»، عشرون فرانكاً للدونم، وقبل حصوله على وثيقة الشراء جاء آخرون، وأضافوا إلى السعر وبلغ سبعة وعشرين فرانكاً، وعندما شاهد صاحب المزرعة ذلك قرر عدم بيعها الآن، على أمل ازدياد جنون المشترين. وجرى ذلك ثانية مع أحد مبعوثي الجمعيات، الذي يحاول البحث منذ أكثر من نصف عام عن قطعة أرض لشرائها، وكان قد اشترى عدة مرات، وفي كل مرة يأتي مضاربون ويعيقون عمليات الشراء بألاعيبهم الكثيرة . لدى مغادرتي البلاد، اشترى مضارب عزبة ورفع سعرها كثيراً، حوالي ثلاثة وثلاثين فرانكا للدونم، وكان على قناعة تقريباً بأنه في نهاية المطاف حقق مراده، لكن فجأة تراجع مالك العزبة، لأنه عثر على مشترين على استعداد لإعطائه ضعفي هذا السعر! ومن البديهي والمفهوم بأنه لم يولد المجنون الذي على استعداد لدفع حوالي خمسين فرانكاً بالدونم، لقد كان هدف الذين أضافوا على السعر، فقط المضايقة.

نسمع عن هذه الأعمال الآن في أرض إسرائيل يومياً، ولقد اعتادوا عليها ولم تعد تثير أي استغراب، وبدأ غير اليهود من مواليد البلاد بالتدخل بشؤون «الفكرة الكبرى» لدينا، وبرز منهم ايضاً «صانعو الجميل» يعملون على توطين أرض إسرائيل... ولماذا لا؟ وبماذا يختلفون عن المضاربين العبريين، والذين يرون في جميع المسألة مجرد وسيلة جمع ثروة من دماء إخوانهم؟ سأواسي نفسي لو أنني لم اسمع أحدهم يقول بصراحة تامة: «لست سوى تاجر

ولا أكترث بعد بيع بضاعتي بمصير من اشتروها، إذا لم ينجحوا بأعمالهم أو خسروا أو ضاعوا، ما شأني بهم؟»– شاهدت بأم عيني رسالة أحد السماسرة العبريين يبلغ شريكه بوقاحة كيفية نجاحه بخداع مبعوثي إحدى الجمعيات الذين وثقوا به وعوضاً عن مساعدتهم في شراء العزبة التي رغبوا في شرائها، وضع عقبات في طريقهم ولم يعرفوا بذلك؟ وكتب أيضا «وستقع العزبة في أيدينا وحينذاك سنربح كثيراً».. إن أحد المشاهد العادية الآن في شوارع يافا سير الناس اثنين اثنين وهما يتهامسان وينظر كل منهما بين لحظة وأخرى في جميع الاتجاهات جراء الخوف والشك من سماع آخرين للأقوال التي يدلي بها لصديقه. يختفي بعضهم أحياناً بصورة مفاجئة، ولا يشاهدون لفترة ما في ساحات المدينة، ويدرك الجميع حينذاك أنهم وبالتأكيد توجهوا سرا إلى مكان ما لمشاهدة «البضاعة» ويعودون بعد ذلك ويختفي آخرون ويجري كل شيء بسرية تامة، جراء قلق كل واحد منهم من أن يسبقه آخر لعقد صفقة ما. هؤلاء الأشخاص هم المشترون، بعضهم أفراد يريدون شراء أرض فقط لأنفسهم وبعضهم جماعات، مبعوثون عن جمعيات مختلفة: مبعوثو «أحباء صهيون» في المدينة الفلانية، مبعوثو «المطالبون بصهيون» في مدينة مجهولة، وهكذا دواليك، يجري كل شيء باسم «صهيون»، ومع ذلك عوضاً عن أن يقدم كل منهم المساعدة لزميله، ويستشيره بكافة القضايا ويعمل معه من أجل هدف واحد وكشخص واحد بقلب واحد، يسير كل منهم في طريقه. ولا يقتصر هذا على الأفراد، بل ويشمل أيضاً أعضاء الجماعات الذين يتصرفون الواحد مع الآخر وكأنه جاء لسلب دخل زميله، ليفتح محلا تجاريا جديدا إلى جانب محله، وينسى هؤلاء الهواة الواعظون مبعوثو شعبنا، شعب إسرائيل، نهائياً الرياح التي جمعتهم هنا، ينسون أنه إضافة للأهداف الخاصة لإفراد كل جمعية من الجمعيات يوجد أيضا هدف عام مشترك للجميع بدونه تذهب جميع أعمالهم أدراج الرياح، وأنه لا فرق نهائيا بين أعضاء هذه الجمعية أو تلك، ومن أجله يجب أن يكونوا منطقيين ومؤهلين لزراعة الأرض المقدسة وأن يشكلوا أساس بناء شعب إسرائيل. ولولا هذا النسيان ولو لم تكن كل جمعية تسعى فقط لمصلحتها، ولسلامتها دون التخلي عن احتياجات القضية العامة– لكان إخواننا المطلعون جيداً على مسار التجارة والمنافسة قد بحثوا على وسائل كفيلة بتأسيس مركز واحد في البلاد، يتوجه إليه الجميع بتطلعاتهم عن بعد ويكون بإمكان جميع أفراد المجموعات المحترمين احترام أنفسهم والجلوس في بيوتهم، ولم يكن أي غريب ليعرف عدد المشتركين ولا مساحة الأراضي التي يسعون لشرائها.

وعندما نرسم في مخيلتنا هؤلاء المشترين من جهة والكتاب الذين يتربصون بالأنباء من جهة ثانية و«الأيديولوجيين» المفرغين الذين يتجولون في شوارع يافا بدون عمل من جهة ثالثة – سنستطيع بلورة مفهوم ما عن الضجة والإحراج، والضوضاء والاهتزاز الذي يرافق الآن كافة الأعمال في أراض إسرائيل. نطلق النفير ونهتف بقوة وبصوت عال لدى شراء أربع أذرع أو حتى لدى التفكير بشرائها، وعن كل صغيرة وكبيرة في يافا تعلم شفوياً وخطياً كل المدينة، الجميع من مهاجرين ومواطنين، من السمسار وحتى آخر العمال، الشيخ والشاب، يعرفون كافة تفاصيل كل مجرى المسألة ويفكرون بأن واجبهم يدعوهم إلى إبداء آرائهم وخوض جدال حول جميع الأمور في الأسواق والشوارع... يقوم كتاب قصار النظر بالبحث عن كل القادمين إلى البلاد، ويحصون جميع خطواتهم، من أجل أن يتمكنوا من حمل البشائر للجمهور الواسع، بوصول هؤلاء وبالذين سيصلون، هذا اشترى وذاك يشتري وهذا فكر بالشراء وما شابه ولا يفكرون ولا بعد نظر لديهم يمكنهم من رؤية النتائج المريرة الناجمة عن ذلك، ولا حاجة للقول بأنه إلى هنا أيضاً تصل جميع الأخبار من أرض إسرائيل، وتتضمن الكثير من الأكاذيب والمبالغات (مثلما جرى مع أحد المبعوثين الذي يتواجد في البلاد منذ ثلاثة شهور ولم ينجح في شراء أرض، وفجأة حملت لنا المجلات بشائر تقول بأنه أسس كولونيالية وأعطاه الله القوة والسلام مع العرب جيراننا)، لكن أيضاً نشر الحقيقة يلحق أضراراً كبيرة: إذ يسمع أصحاب البيارات من جهة (أيضاً يوجد من إخواننا من يقولون لهم ذلك) بأن اليهود يحضرون بحشودهم الكبيرة لشراء أراض، ولذا يرتفع سعرها من يوم لآخر، ومن جهة ثانية نجتذب نحونا ونحو أعمالنا عيون الحكومة وشعب البلاد، وذلك حتى قبل أن نفعل شيئاً حقيقياً، ونبذل قصارى جهدنا وبما يشبه سبق إصرار كي نصاب بالحسد... ومن جهة ثالثة، ولربما يكون هذا أسوأ، فإن جميع من في المهجر يسمعون عن الهجرة المتزايدة للشعب، وبقوة التقليد يهب للهجرة أيضاً أشخاص ليسوا جديرين بذلك، هجرتهم سيئة لهم وسيئة للبلاد، ويضيفون هناك استياء إلى استيائنا.

لن نستغرب بتاتاً، بسبب وضع كهذا، إذا لم يعد بالإمكان خلال فترة قريبة العثور في أرض إسرائيل على أرض لشرائها، خصوصاً إذا بدأت الحكومة التركية مرة أخرى بوضع عقبات أمامنا، وإذا أثارت الأعمال البشعة القرف في نفوس أفاضل شعبنا، ستحل عوضاً عن «الحركة الكبيرة» ردود فعل رهيبة...

توجد على شاطئ بحيرة طبريا كولونيالية اشكنازية، صغيرة، جلسنا فيها للاستراحة لدى مروري وأصدقائي من روش بينا إلى طبريا وعرفت لدى تبادلي الحديث مع الموظف أنه وقبل فترة

قصيرة اشترى الفرنسيسكان قطعة أرض كبيرة تمتد من هذه الكولونيالية وحتى نهر الأردن. يقع هذا المكان في منتصف الطريق بين طبريا وصفد وقرب الكولونيات الشمالية التابعة لنا، في المكان الذي يتوجه إليه إخواننا بحثاً عن أراض لشرائها، وعلى الرغم من ذلك لم يعلم أي منا شيئاً عن عملية الشراء، وتذكرت دربنا وقلت بنفسي: بورك «غير اليهودي» لأنه يتحدث قليلاً وجميع افعاله تتم بإمعان تفكير وبنظام.

*****

يشهد على انعدام التفكير والنظام في كل أعمالنا مثال آخر يحمر وجهي خجلاً لدى الحديث عنه. بعد عشر سنوات من العمل وكتابة آلاف المقالات والجولات الكثيرة السياحية... التعليمية، فإننا أيضاً الآن يسيطر الجهل علينا بكافة المسائل المتعلقة بشعب البلاد، وحتى في الأمور الأساسية التي تعتبر معرفتها إلزامية.

وتقريباً لا توجد مسألة تتعلق بقضايا العمل الزراعي والكرمة لا تسمع عنها ردودا متناقضة، اسألوا وعلى سبيل المثال الكولونياليين: كم عدد أشتال العنب التي من الصحيح زراعتها في أرض مساحتها دونم واحد؟ ستسمعون رداً مختلفة تبدأ من ٤٠٠ وتتضاءل حتى ٢٢٥، وهكذا الأمر بالنسبة لأسئلة أخرى، وينطبق هذا على زراعة الحبوب وزراعة أشجار الحمضيات المختلفة، ويجري كل شيء وفقاً للشائعات التي ينقلها شخص لآخر، وأحياناً وفي حالات نادرة يطلق أحد «المطلعين» كلمة، تتحول إلى أساس يبني عليه شخص بعد زميله ويبلغ بها كل سائل، باعتبارها أمراً واضحاً وثقته التجربة – هل من الجيد للبلاد إقامة إضراب واحد فيها لعدة سنوات؟ يوجد من يقولون بأنه جيد وملائم ويقول آخرون بأن الإضراب سيخرب أكثر . – كم مكيالاً تعطي الأرض المتوسطة الجودة في السنة المتوسطة الخصوبة ؟ – ينتج العرب (كما يشاع) خمسة أو ستة مكاييل لكن لا يوجد إثبات على ذلك – كما يقول البعض – لأن العمل العربي مرفوض وأدوات حراثتهم غير ناجحة، ولو كانوا يحرثون بمعدات أوروبية، لتم إنتاج أكثر بكثير، وبالمقابل يقول آخرون بأن مضامين أرض البلاد لا تتحمل المحاريث الأوروبية، ويعرف جميع سكان البلاد، أن كثيرين من الأشكناز وأيضاً العرب الأغنياء يستخدمون معدات أوروبية، وإذا كان الأمر كذلك أليس صحيحاً تجميع معلومات إحصائية من أماكن مختلفة وعرض رد واضح بناء على التجربة؟ على الرغم من ذلك لا تتوفر معلومات – هل سمعت أيها القارئ طوال حياتك بأن جميع البيوت في أرض إسرائيل رطبة في الأيام الماطرة، وتلحق أضراراً صحية خصوصاً بمرضى الصدر؟ لم تسمع، رغم قراءتك الدائمة لجميع الأنباء القادمة من هناك، لكن هذا الأمر صحيح، ووفقاً لأقوال بنائين خبراء تحدثت معهم حول هذا الموضوع، بالإمكان القضاء على هذه الآفة بسهولة من خلال وسائل مختلفة مستخدمة في بناء البيوت، لكن لم يهتم أحد بإجراء بحث عن الموضوع، وأيضاً بخصوص قوانين البلاد المتعلقة بشراء الأراضي الأمر الذي وبالضرورة تشعرون به في كل خطوة، لكننا نتحسس كعميان في الظلام، ولا يوجد بيننا حتى الآن شخص واحد موثوق، يعرف على الأقل قراءة العربية بجدارة، نشتري نحن سكان إسرائيل أراضي بآلاف وبعشرات الآلاف دون أن نستطيع المعرفة بوضوح إذا كانت وثائق الشراء والبناء مكتوبة بصورة صحيحة ونجبر على الاعتماد بهذا على معلومات تتطاير بالهواء.

إذا كان هذا الأمر متعلقاً بزراعة الأرض، المسألة التي يعمل فيها الجميع، فإنه أكثر خطورة في قضايا التجارة وقوانين المصانع، التي لا تتوفر لدينا حولها أية معلومات صحيحة، وجميع النصائح والاقتراحات التي كتبت في هذا لا تعد كونها مجرد تقديرات فقط. تلقيت خلال تواجدي في البلاد رسائل كثيرة تتعلق بأسئلة في هذه القضايا، واعترف بدون خجل بأنني لم أرد على أي شخص، جراء عدم معرفتي . تتلقى «اللجنة التنفيذية» في يافا رسائل كهذه يومياً وهي أيضاً تمر على معظمها بصمت، وإذا لم أكن مخطئا فإن هذا يعود لنفس السبب، فالسائلون الأبرياء وبعد مشاهدتهم الإطلاع الخارق الذي يبديه كتاب أرض إسرائيل في كل مسألةً يصدقون وبالتأكيد أنه يكفي الشخص الحضور لأرض إسرائيل، إذ سيجد هناك جميع المعلومات متراكمة وجاهزة أمامه، ولا يخطر على بالهم بأن جميع هذه «الكفاءات» قائمة على الشائعات، وأنه في الحقيقة لا يعرف أحد شيئاً.

*****

نستغرب انعدام توفر المعرفة لدينا بأمور لا تجارب كافية لنا فيها، والتي كان بإمكاننا معرفتها من مصادر أخرى ويزداد هذا الاستغراب من عدم قدرة أو عدم تطلع إخواننا لأخذ الجدوى من التجربة المتوفرة لنا.

ها هي حوالي عشر كولونيات قائمة منذ عدة سنوات لا تستطيع واحدة منها الوجود بدون دعم، لقد كذبت البشائر التي نشرتها المجلات بأنه في إحدى الكولونيات توقف كثيرون عن تلقي دعم سنوي كهذا، وعلى الرغم من جميع محاولاتي ومطالبي، لم أشاهد شخصاً واحداً يعيش على منتوج أرضه فقط. لماذا؟ هل فعلاً صدق من يقولون بأن أرض آبائنا تأكل سكانها؟

هل فعلاً يحرث الحارث ويزرع الزارع هناك عبثاً، وبدون جدوى ولا يتلقى ثمار عمله؟ ما شاء الله! أيضاً في أرض إسرائيل مثلما

هو عليه الأمر في البلدان الأخرى يشبع خبزاً من يزرع أرضه، وحتى في هذا العام، الذي لم يكن مباركاً، يشاهد المسافر على جنبات الطرق حقولاً مثمرة، ووديااناً تغطيها النباتات، العرب يعملون ويأكلون، والأشكناز يعملون ويأكلون، هل فقط علينا تنقلب الدوائر! لماذا ذلك؟.

الرد الحقيقي الذي يوافق عليه جميع العقلاء في أرض إسرائيل هو: جميع الكولونياليين الأوائل، أحضروا معهم مثلا غنية، وبعضهم أيضا ذوو أموال قليلة أو كثيرة، لكنهم جميعاً يفتقدون الكفاءة والمضامين الضرورية، لزراعة الأرض وليسوا قادرين على أن يصبحوا مزارعين بسطاء، يقومون بالعمل المضني هم وأبناؤهم، ويكتفون على الرغم من ذلك بالقليل الممكن، ولا حاجة للحديث عن المتعلمين، إذ إنه حتى الأشخاص البسطاء منهم لا يحبون كثيراً زراعة الحقول المشبعة للخبز، ولهذا تحول معظمهم في نهاية المطاف إلى صانعي خمور فقط، وفي الحقيقة يجلسون ينتظرون دخلهم المستقبلي القادم، وجراء أحلامهم بالمستقبل الجيد ينسون الحاضر: إنهم لا ينتبهون كثيراً للحديقة الخضراء خلف منازلهم ولا يربون الماشية والدواجن بالقدر المطلوب، إذ يحضر العرب لهم الزبدة، البيض، والخضراوات، ويشترون كل شيء بكامل الثمن، حتى أن الأعمال في كرومهم لا يقومون بها بصورة دائمة بأنفسهم، يوجد فعلاً من يشذون عن هذه القاعدة، لكن جميع هؤلاء فقراء لا تتوفر لهم مساحة كافية من الأرض.

ليس بالإمكان ومن خلال هذه التجربة استنتاج رد واضح على السؤال الذي يطرح يومياً: من الذي يهاجر إلى البلاد للاستيطان فيها كعامل في أرضها ؟ من الذي يحضر معه كافة الوسائل المطلوبة لذلك، المادية منها والمعنوية؟ الوسائل الأخيرة؛ أي محبة العمل، الصبر، الجرأة وما شابه؟، تمكن بدرجة متكاملة من تحمل المعاناة إلى حين ازدهار الأهداف، والأولى – بدرجة محدودة، وضرورية فقط، لا توقعه في أحلام الغنى والسيادة، وكل ذلك وفقاً لعدد أفراد عائلته، وعدد العاملين منهم. ونسمع في هذا الإطار اليوم أيضاً جدالاً وتحقيقات حول كم هو المبلغ المطلوب، وكأن جميع المسألة لا تعدو كونها، كم سيكون دخل الفرد المؤهل لأن يكون من المزارعين الأوائل لأرض آبائنا، يقول هؤلاء خمسة آلاف روبل فضي روسي، ويقلل آخرون من هذا المبلغ ألفين، ولم ينتبهوا جميعاً، إلى أن كثيرين أحضروا للبلاد أكثر من هذه المبالغ، لكنهم لم ينجحوا في العيش من ثمار أراضيهم لأن الوسائل المادية والمعنوية المطلوبة لزراعة الأرض تتعامل مع هذا وذاك، وفي معظم الأحيان بقيمة معاكسة، مع ازدياد رأسمال الشخص يتضاءل تطلعه وتتضاءل قدرته على العيش حياة بسيطة في عمل جسدي، أما محبة صهيون وعلى الرغم من أن كثيرين يقولون في أنفسهم أنهم على استعداد للتضحية على مذبحها، بحياتهم وسعادتهم، فإنهم وفي إطار المحك العملي لا يملكون قوة كبيرة لاقتلاع رغباتهم وتطلعاتهم التي حملوها معهم من المهجر، من جذورها.

ولد في السنوات الأخيرة حزب مهاجرين جدد – حزب «العمال»، وهم أشخاص يحضرون إلى أرض إسرائيل للعمل لدى آخرين كأجراء يوميين، إنهم يعثرون وبمجهودات «اللجنة التنفيذية» على عمل في إحدى الكولونيات الجديدة، ويتلقون أجراً جيداً وفقاً للمكان الذي يعملون فيه (تقريباً ١,٥ فرنك يومياً)، وهذا يكفي حتى لتوفيرهم مبلغاً ما ويدخرون، ويتصرف معهم الأشخاص المستقيمون وأحباء صهيون الحقيقيون بلطف ورحمة، ويحاولون تحسين أوضاعهم قدر الإمكان. إن كل عامل من شعب آخر في وضع كهذا لا يجد سبباً يدعوه إلى التذمر الشديد من المصير الذي آل إليه، لكن ليس هذا هو وضع العامل العبري في أرض إسرائيل. قلت «أرض إسرائيل» لأننا نسمع من أميركا بشائر جيدة حتى من العمال العبريين: عثر فلان وفلان على عمل يوفر بالكاد لهم احتياجاتهم المعيشية، وهم سعداء فعلاً وينصحون أقرباءهم بالتوجه إلى هناك ليتمتعوا هم أيضاً بهذه السعادة، لكن لا يوجد أمر كهذا في أرض إسرائيل، إذ هنا أيضاً الذين يطالبون بالخبز ويجدونه بثمن عملهم يعتقدون بأنهم ضحايا المصلحة الجماعية، وأن من حقهم المطالبة بمقابل ذلك من جميع إسرائيل. تعاف نفوس كثير من هؤلاء بعد فترة ما هذا العمل، ويثور غضب في نفوسهم على الإطار العام الذي يعملون من أجله، والذي يعتقدون بأنه ناكر للجميل لا يدفع لهم المقابل المناسب، الذي يمكنهم من شراء حقول وكروم وما شابه. نشرت هذه المزاعم في الأيام الأخيرة في إحدى المجلات الصادرة في القدس، وعندما سمعت ذلك من أشخاص موثوقين في أرض إسرائيل يعرفون العمال عن كثب، عرفت بأن هذا ليس مجرد رأي فردي بل صدى أصوات عمال كثيرين.

لا نتعلم حتى من هذه التجربة ما يجب علينا تعلمه، ويوجد في أرض إسرائيل من يبادرون لزيادة عدد العمال من إخواننا بصورة مصطنعة، ليس من مواليد البلاد– وبالتأكيد هذا جيد ومجد– بل من الخارج.

ليس هذا فقط، بل وبصورة عامة لا نتعلم شيئاً من الماضي لإغناء المستقبل. على الرغم من أننا وبالتأكيد بإمكاننا التعلم من دروس الماضي والحاضر، مدى ضرورة الحذر من إثارة غضب شعب البلاد علينا من خلال أعمال شائنة، وكم يتوجب علينا الحذر في تصرفاتنا مع الغرباء الذين نحضر للسكن من جديد في أوساطهم، والتعامل معهم بحب واحترام ولا حاجة للقول

بعدل وقانون.

ما الذي يفعله إخواننا في أرض إسرائيل؟ العكس تماماً! لقد كانوا عبيداً في مهجرهم، وفجأة وجدوا أنفسهم يتمتعون بحرية غير محدودة، حرية تامة يستطيعون الحصول عليها فقط في دولة كتركيا، إن هذا التغير المفاجئ يولد في نفوسهم نزعات يطلق عليها دائماً «العبد ينصب نفسه ملكاً» وها هم يعاملون العرب بعداء ووحشية، يقتحمون حدودهم بدون عدل، يضربونهم بشدة بدون سبب كاف ويتباهون بعملهم هذا، ولا يوجد من يواجه ذلك ويمنعهم من هذه الميول المهينة والخطيرة . لقد صدق إخواننا فعلاً عندما قالوا إن العربي يحترم فقط من يستعرض أمامه بطولاته وجرأته، لكن ذلك يتحقق عندما يشعر هذا الشعب (العربي) بأن الحق مع خصمه، ولن يتحقق ذلك إذا ما كانت لديه أسباب للاعتقاد بحق أن أعمال خصمه خداع وسلب. وعندها، حتى لو صمت وضبط نفسه إلى إشعار آخر، فإن هذه الأعمال ستبقى محفوظة في قلبه، وهو منتقم وحاقد لا مثيل له.

*****

وما الذي أضيفه أيضا؟ سأحدث القارئ عن المعايير المختلفة السائدة في أوساط القادمين من المهجر، وعن الكراهية بدون مبرر وعن التفريق بين النفوس وعن الخلافات التافهة بسبب مكان في كنيس وما شابه.– ويبدو لي أن ما قلته سابقاً غير كاف لإثبات أن «هذا ليس هو الطريق» لتحقيق الهدف. وأنه إذا واصلنا السير في هذا الدرب، وفي قضاء أيامناً في استنزاف قوانا في نشاطات غرس الفرقة والصراعات، متخلين عن القيم الصحيحة، ومن دون التنظيم الناجع وبدون قيادة منطقية وبدون إتباع أساليب وأنظمة – حينذاك، يمكن فعلاً أن ننجح في نهاية المطاف بتوطين آلاف من مزارعي الكرمة وصانعي الخمور في البلاد، الذين يستطيعون مع مرور الأيام الحصول على خبزهم سواء بسهولة أو بصعوبة، بمساعدة السماء أو الإنسان، لكن الهدف الرئيس، من شبه المؤكد أن لا نصل إليه للأبد، وعوضاً عن حل كامل وأبدي للمسألة اليهودية، ستستمر المسألة اليهودية بالوجود في مكان لم توجد فيه حتى الآن. في أرض آبائنا..... إذن ما العمل؟ لمن نتحدث، لمن نتوجه من الذين سيقودوننا، ومن الذي سيسمع صوتنا؟

لن ينقذ شعب إسرائيل كما أثبتت التجربة إحسان أفراد «كرماء»، حتى إذا كان حقهم برسوخ الجبال الشاهقة، وأيضاً لا يجب عقد آمال كبيرة على إخواننا من أوروبا الشرقية لأن أوضاعهم المادية والمعنوية والسياسية لا تسمح لهم بعمل الكثير، ولا حتى تسلم القيادة. هل يعملون الكثير الآن وما الذي سيعمل وكيف سيعمل– لقد شاهدنا ذلك. وأحد أعمالهم «اللجنة التنفيذية» في يافا التي تعطي فعلا جدوى كبيرة، وتقوم بترتيبات قدر طاقتها، لكن «إمكانياتها» محدودة جداً، لأسباب مختلفة خارجية وداخلية يعود مصدرها أيضا إلى مضامين وأوضاع إخواننا هؤلاء الذين خرجوا من أوساطهم..

إذن لم يتبق أمامنا إلا التوجه لإخواننا في الغرب، خصوصاً في بريطانيا الذين يهتمون كثيراً في الأيام الأخيرة بمسألة استيطان أرض إسرائيل. وإذا كان من بين هؤلاء المهتمين فعلاً، كما تقول المجلات، أشخاص كبار من مواليد البلاد، فإنهم يستطيعون إصلاح الإجحاف وإعطاء المسألة الصورة المناسبة لها، إنهم أشخاص اعتادوا حياة منظمة ويعرفون ما هو العمل الصحيح وإضافة لذلك تتوفر لهم كافة الوسائل الضرورية– كان يتوجب عليهم تأسيس شركة قومية كبيرة لتوطين أرض إسرائيل .

ويتوجب عليهم أولاً إرسال مجموعة من خبراء في مجالات متنوعة يجولون البلاد طولاً وعرضاً طوال عام أو عامين، يجرون تجارب ويجمعون معلومات صحيحة عن جميع الأمور المتعلقة بأرض إسرائيل والأعمال فيها. وبعد ذلك يحاولون شراء ضيعة معروضة للبيع، يحاولون ذلك بعقلانية ومعرفة وبحذر زائد بدون ضجة وضوضاء.. توزع الشركة جميع أراضيها إلى نوعين، الأراضي التي معظمها للزراعة الموسمية وقليل منها لغرس الأشجار والأراضي التي جميعها لغرس الأشجار، وتقيم على الأولى كولونيات على الفور وتقسمها إلى قسائم تكفي لعيش رجل وأسرته. تجري الشركة حسابات كم تبلغ تكلفة كل قسيمة مع بيت وزريبة وبهائم والمعدات المطلوبة لذلك، ولا يجب أن يجري هذا بإسراف، بل فقط ما هو ضروري، وبعد ذلك تبيع كل قسيمة مع كل ما هو تابع لها إلى أشخاص غير أغنياء، ترى الشركة بأنهم مناسبون، وذلك بناء على مشاريعهم وقدراتهم الخاصة بالعيش كمزارعين في أرض إسرائيل، وتقدم لهم تخفيضات بأساليب الدفع بالصورة التي تراها مناسبة بشرط أن يفوا بجميع الشروط التي تحددها مسبقاً لهم، خصوصاً كل ما له علاقة بتنظيم حياتهم وأعمالهم، أما الأرض من الصنف التالي فتزرعها الشركة نفسها بمساعدة عمال عبريين، تختارهم وتجد بأنهم مناسبون، لذلك وبعد مرور سنوات من العمل في كل كرم أو بيارة، وبعد أن تكون مهيأة للبيع تبيعها الشركة لأحد أعضائها، أما العمال الذين عملوا بأمانة في جميع السنوات السابقة في هذه الأرض، فتنقلهم إلى النوع الأول من الأرض، وتقدم لهم «قسيمة» مع كل مستلزماتها، بشرط أن يعيشوا وفقاً لقوانين معروفة، وأن يدفعوا الدين بصورة تدريجية، على امتداد سنوات طويلة.

كانت ستُجمع من خلال هذا الأسلوب أراض كثيرة بثمن غير باهظ، بدون حسد، ولا مضاربة، ولا منافسة، لأن جميع هؤلاء الذين يشاركون الآن في الجمعيات المختلفة، التي تعدهم بكرم بعد فترة، سيختارون المشاركة في هذه الشركة وشراء كروم منها وبعد فترة لن يوجد أي «مشتر» للأراضي إلا الشركة، وهؤلاء الذين يرون الاستيطان في البلاد على أساس زراعة الأرض سيجدون هنا كل شيء جاهزا أمامهم، وإذا كانوا فعلاً مؤهلين لهذا سيحققون أهدافهم بدون مصاريف كبيرة، كما سيدرك العمال الفقراء بأنه يوجد أمامهم أمل، إذا عملوا بأمانة، وسنجد في نهاية المطاف في أرض إسرائيل بعد عشرة أو عشرين عاماً حشوداً كبيرة من إخواننا ليس مجرد مهاجرين فقراء يطاردون الغنى، ولا ينجحون بتحقيقه، بل أشخاص أصحاء جيدون وصادقون، يحبون العمل، يعيشون من تعبهم بسلام وبنظام صحيحين. ولن يثير هؤلاء الأشخاص في البداية أية كراهية من شعب البلاد، لأنهم لا يتحرشون به ولا يقتحمون حدوده، لكن مع مرور الأيام من الممكن أن تتحول الغيرة إلى كراهية، ولا أهمية، لذلك. لأنه حتى ذاك الحين سيكون إخواننا قد حققوا مكانة في البلاد من خلال عددهم المتزايد ومزارعهم الكبيرة والغنية، ووحدتهم وأنظمة حياتهم الجيدة.

ومن البديهي أن يكون كل هذا مجرد توجه عام يبين روحية هذه الشركة، وإذا كانت فعلاً ستؤسس فستجد شخصيات عظيمة وأفضل مني، تعد لها أنظمة مفصلة.

لكن يجب أن لا ننسى أنه في ظل الأوضاع القائمة الآن، ستكون أعباء العمل على الشركة كبيرة في بدايتها. ولن يكون من السهل وقف تدفق الهجرة المذعورة إلى أرض إسرائيل، بعد أن اعتادت الجماهير طلب الهجرة إليها، وليس من السهل ترك المضاربين لأعمالهم وانصرافهم بسلام، ولن يتوقف هؤلاء في البلاد ولا حتى للحظة واحدة عن بلبلة أذهان الحشود من خلال «العروض» الكبيرة والجمعيات المغتنية، ولن يصبح كتاب إسرائيل حكماء فجأة بل سيستمرون في إثارة ضجة كبيرة على كل حادث بسيط الأهمية، يقع في البلاد. يوجد مكان آخر في أرض إسرائيل لم تمسه يد حتى الآن، إنه شرق الأردن، هناك بعيداً عن أماكن الضجة العالية، والإحراج، بإمكان الشركة البدء بالعمل بارتياح، والعمل في نفس الوقت قليلاً أو كثيراً، في تنظيم الأمور في غرب البلاد. لكن لفاجعتنا بدأ المضاربون بالتطلع إلى غور الأردن هذا، ويفكر كثير من المهاجرين الآن بالاستيطان هناك. يتناول كل لسان في يافا الآن «شرق الأردن»، ويوجد كتاب يرفعون أصواتهم في المجلات كعادتهم ويدعون الجمهور «إلى شرق الأردن». من الممكن أن لا تطول الأيام التي سنشاهد فيها هناك جميع الأحلام التي اعتدنا عليها في يهودا والجليل، أما الشركة التي ذكرتها، إذا لم تكن الأقوال التي عرضتها مجرد أوهام، فيتوجب عليها البدء بالعمل في خضم هذه الضجة والاندفاع، وستواجه حرباً ضروساً من الداخل ومن الخارج، وستتطلب هذه الحرب حشد قوى كثيرة، وصبرا شديدا وتفهما زائدا.

*****

مشبعاً بالأفكار المثيرة للأعصاب، وبعد أن تجولت في البلاد وشاهدت ما شاهدته في يافا والمستوطنات، توجهت مساء عيد الفصح إلى القدس، لصب جام غضبي وأفكاري أمام الأشجار والحجارة المتبقية من جمال العهود السابقة. كانت بداية دربي بالطبع نحو «حائط المبكى» حيث شاهدت هناك الكثير من سكان القدس يقفون ويصلون بصوت مرتفع، وكانت وجوههم الشاحبة وحركاتهم الغريبة وملابسهم المتباينة وكل شيء فيهم يتوافق مع منظر حائط المبكى الرهيب، فوقفت أنظر إليهم وإلى حائط المبكى، وكانت فكرة واحدة تتغلغل في ثنايا نفسي: تشهد هذه الحجارة على خراب بلادنا، وهؤلاء الأشخاص على خراب شعبنا، وأي من هذين الخرابين أكبر من الآخر؟ ومن منهما نبكيه أكثر؟ البلاد قد تخرب، لكن الشعب ما زال يغص بالحياة والقوة، ويقوم لإنقاذها زوبابل، وعزرا، ونحميا، ويسير الشعب أمامهم فيستوطنها ويعيد بناءها، لكن إذا ما ساد الخراب الشعب، فمن سيهب لمساعدته ومن أين ستأتي نصرته؟

لو تقمصت الآن روحية الحاخام يهودا هليفي وتمكنت من نظم مرثية مثله عن خراب وطني لبدأت مرثيتي لا بـ «صهيون» بل بـ «إسرائيل».

[٢١ أيار ١٨٩١، في سفينة متجهة من يافا إلى أوديسا]

الهوامش

(١) نص مترجم من العبرية. ترجمة سعيد عياش.

٢ جوني منصور، ٢٠٠٩، معجم الأعلام والمصطلحات الصهيونية والإسرائيلية، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية (مدار)، رام الله. ص ١٤.

٣ في شلومو أفينيري، ٢٠١٣، «أحاد هعام الذي لا تريدون معرفته: قراءة في كتاب أحاد هعام وهرتسل»، تأليف يوسي غولدشتاين، إصدار مركز دينور لدراسة تاريخ إسرائيل ومركز زلمان شزار لدراسة الشعب اليهودي، هآرتس، ٧،١،٢٠١٣: http://www.haaretz.co.il/literature/study/١,١٩٠١٩٨٦ (آخر مشاهدة ٢٠١٣/٣/١)

٤ نص الرسالة بالإضافة إلى كتابات أحاد هعام بالعبرية موجودة على الرابط التالي:

http://benyehuda.org/ginzburg/